الإعجاز في البلاغة والبيان

أول من كتب في البلاغة وأسس لها: الجاحظ ت٢٥٥هـ. وذلك في كتابيه البيان والتبيين والحيوان

ومن أهم ما تميزت به دراسته للأسلوب القرآني:

١-كانت نظرته للأسلوب القرآني نظرة عقلية ذهنية فنية مجردة متأثرة بإحساسه وذوقه الخاص.

٢-يفتقد إلى الوحدة العضوية والموضوعية لهذه النظرة فهي شذرات متناثرة وغير مترابطة.

٣-كانت نظرته جدية وفتحت الباب واسعاً لدراسة اسلوب القرآن.

٤-لم يقصد التأسيس لعلم الإعجاز بالبلاغة والبيان وإنما كانت دراسته انسياباً تأثريا فاضت به قريحته.

فهو فرق بين ألفاظ المطر للعذاب والغيث للرحمة وفرق بين لفظ الجوع للأغنياء والسغب للفقراء. وكان يكشف عن غوامض الكلم ومواضع الاستعارة والتمثيل والتشبيه، رسم صورة مرعبة عن شجرة الزقوم قال إنها توحي بالرعب والخوف، قال ﷻ: ﴿..أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فأبرز أصل الجحيم وقعر جهنم ورؤوس الشياطين كلها مبهمات مرعبة ومخيفة.

-**ابن قتيبة** ت٢٧٦، كتب تأويل مشكل القرآن، حاول أن يكشف عن مواطن الإعجاز والاستعارة والحذف والاختصار والتكرار والزيادة والكناية والتعريض وتأويل الحروف وكشف عن مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه ويتبين من خلال دراسته أنه أكد على ما يأتي:

١-أكد على أمر الإعجاز بالتركيب البلاغي وكيفية ضم الألفاظ بعضها إلى بعض ولم يشر إلى ما وراء هذه الألفاظ.

٢-أكد على الإيقاع الداخلي للآيات والنظم الموسيقي باعتبار: أصواتها ومخارجها والهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير، ...الخ.

٣-أكد على الأثر النفسي الذي يتركه تأليف الآيات في القارئ أو المستمع وحاول أن يكشف عن مواضع الاستعارة، ولم ينشغل بما وراء النص من خفايا.

-**الرماني:** ت٣٨٦هـ: يتجلى موقفه من خلال رسالته (النكت في إعجاز القرآن). فهو قد كشف عن الدلالات البلاغية والفنية والنفسية ثم تجاوز ظاهر النص إلى ما وراءه من دلالات وأسرار وكان تركيزه على الجانب النفسي والوجداني وتظهر وجوه الإعجاز في القرآن من سبع جهات:

١-ترك المعارضة مع شدة الحاجة وتوفر الدواعي،٢-التحدي لكافة البشر بشكل مطلق.

٣-الاعجاز بالصرفة، ٤- الإعجاز بالبلاغة، ٥- الإعجاز بالغيب، ٦-الاعجاز بنقض العادة، ٧- قياسه بكل معجز.

وقد وجه اهتمامه نحو البلاغة في القرآن ويجعلها من أظهر الوجوه الإعجازية، **ويجعل البلاغة ثلاث طبقات:**

١-منها ما هو في أعلى طبقة وهو القرآن الكريم، وهو كلام معجز وهو بلاغة القرآن، ويحصرها الرماني في عشرة أبواب وهي: الايجاز، والاستعارة ،والتشبيه، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والتلاؤم، والمبالغة، وحسن البيان.

٢-ومنها ما هو في أدنى طبقة وهي بلاغة العامَّة.

٣- و منها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، وهي طبقة أهل العلم. تميزت دراسته بالأسلوب البلاغي كفن من فنون القول ومن أمثلته: قوله ﷻ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ وهذا مستعار وحقيقته أنه أجاعها وأخافها واستمر ذلك كاستمرار اللباس في لصوقه للجلد، وفي قوله أذاقها إشارة لشدتها كشدة مرارة العلقم. و قوله ﷻ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهي استعارة كانت أبلغ من الحقيقة وهي صدع الزجاجة. وقوله ﷻ: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظ﴾ والشهيق صوتا فظيعا كشهيق الباكي، فهي استعارة بليغة، وتميز من الغيظ هي استعارة لشدة الغليان ....

-**الخطابي** ت٣٨٨هـ من خلال رسالته(بيان اعجاز القرآن. وهو أول من قسم **الأسلوب القرآني إلى أنواع متعددة:**

١-الأسلوب البليغ الرصين الجزل.

٢-ومنه الفصيح القريب السهل.

٣-ومنه الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام المحمود من دون الكلام المذموم الذي لا يتصف به القرآن الكريم. وقرر الخطابي أن لا أهمية للفظ وحده ولا أهمية للمعنى وحده وإنما **يتقدم الكلام بأشياء ثلاثة:**

١-لفظ حامل. ٢-معنى به قائم، ٣- رباط لهما ناظم. و تكاد لا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاركاً من نظمه والرباط الناظم حسن التأليف، فلا تنافر فيه ولا تعقيد. **وقرر أن عمود البلاغة وهو:** وضع كل كلمة في موضعها، وبخلافه يذهب رونق البلاغة لأن أي كلمة قد تصلح في تركيب ولا تصلح في تركيب آخر، وهذا لا يأتي به بشر، كون القرآن قد جمع بين الفصاحة والبلاغة والتأثير ودقة المعنى كي تنتظم آياته وتتسق.

ومن أمثلته: قوله ﷻ: ﴿فأكله الذئب﴾ ولم يقل افترسه لأن المراد أنه أتى عليه بالكلية، وقالوا الذئب لأنه لا يبقي من فريسته شيئاً وقالوا أكله خشية من أن يطالبهم أبوهم بشيء منه، وقوله: ﷻ: ﴿هلك عني سلطانيه﴾ ولم يقل (ذهب) لأن الذاهب قد يعود بينما الهالك ليس له رجعة البتة.

-الباقلاني: يمكننا الحكم على أثره من خلال كتابه(إعجاز القرآن).

يمكن أن نجمل موقف الباقلاني من الإعجاز القرآني بأنه يكمن في عجيب نظمه وتأليفه وهو متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز البشرية جميعاً، وقال إن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة، **وإن إعجاز القرآن يتضمن وجوهاً منها:**

١-منه ما يعود إلى الجملة أي أنه يختلف عمَّا عهدته العرب في كلامها.

٢- لم يألفه العرب فصاحة وبلاغة فوق ما به من لطافة ومعان عميقة.

٣-فوق ما فيه من ثروة من الحكم والقصص والحجاج فإنه لا يختلف ولا يتباين.

٤-إن كلام الفصحاء البلغاء يتفاوت في الفصل والوصل والعلو والسفل، والقرآن بريء من كل هذا فقد جاء بأحسن ربط ونظم وبلاغة مذهلة حارت بها العقول.

٥-إنه في علو بلاغته ونظمه فقد جاء فوق طاقة الإنس والجن.

٦-فقد تجاوز طاقة العرب في الخطابة والبسط والاختصار والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح ونحو ذلك من الوجوه.

٧-رغم مجيء الكلمة في تضاعيف كلام كثير إلا أنها تحمل حلاوة وبلاغة تأخذ بالأسماع وترى رونق جمالها بادياً.

٨-إنه سهل ممتنع خارج عما يستقذره العرب ويستنكروه، مما ذكرته الكتب السماوية الأخرى من سيء الأخلاق، فلا فحش ولا تكلف ولا تطويل ممل أو اختصار مخل.

١٠-جاءت ألفاظه موافقة للمعاني بصورة مبتكرة وموافقة لبعضها بعضاً في اللطف والبراعة والبديع، وعلى توافق بين الألفاظ والمعاني ممَّا يتعذر على أي مخلوق.

-الفخر الرازي من خلال كتابه: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز).

أكد، الرازي أن إعجاز القرآن يكمن في فصاحته والفصاحة من مرادفات البلاغة وهذه الفصاحة إما أنها تعود إلى المفردات المستخدمة أو إلى تراكيبه وتآليفه، وقد أيده حازم القرطاجي والمراكشي والسكاكي والزمخشري وغيرهم...

قيمة البحث البلاغي في القرآن الكريم لدى المتقدمين:

فقد درس السيوطي التشبيه والاستعارة والكناية والحقيقة والمجاز والخبر والإنشاء ..الخ، وقرر أن منبع السحر الأصيل في القرآن الكريم في صميم النسق القرآني في كل مقطع ومفصل من مفاصله، ومن أمثلته: قوله ﷻ: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ استعير خروج النفس شيئا فشيئا بخروج النور شيئا فشيئا وكل ذلك محسوس فجعلت الآية الصبح وكأنه كائن حي يتنفس، بل وكأنه إنسان ذو عواطف وأحاسيس وخلجات نفسية تشرق الحياة بإشراقه. و مثلها قوله ﷻ: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ فالدمغ والقذف مستعاران ومحسوسان قال الرضي: الدمغ للأشياء الثقال عن طريق الغلبة والاستعلاء والغلبة، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه. وكأن الحق قذيفة ثقيلة تدمغ الباطل فتزهقه فتخرج روحه. ومثلها قوله ﷻ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال أصابع ولم يقل أنامل مما يدل على ما أصابهم من الذعر والهلع حتى أرادوا أن يدخلوا أصابعهم بدل أناملهم في آذانهم، ومثله

قوله قال ﷻ: ﴿ فأمه هاوية﴾ إذ الأم كافلة لوليدها وهي ملجأ له والنار كذلك كافلة ومأوى له ولسكنه، وهكذا في كناياته الجميلة مما فيها من أدب الحديث وأدب التعبير.